الفصل الثاني عشر

شيبتني هود وأخواتها

جاء في الحديث عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت.

قال: شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعَم يتساءلون وإذا الشمس كورت".

وروى القرطبي، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت أبا علي السري يقول: رأيت النبي في المنام فقلت: يا رسول الله روي عنك إنك قلت: شيبتني هود قال: نعم، فقلت: ما الذي شيبك منها؟ قصص الأنبياء، وهلاك الأمم؟ فقال: لا ولكن قوله: فاستقم كما أُمِرْتَ.

قال الحافظ المناوي في شرح كتاب فيض القدير: شيبتني هود: أي سورة هود وأخواتها، أي وأشباهها من السور التي فيها ذكر أحوال القيامة، والعذاب، والهموم، والأحزان، إذا تقاحمت على الإنسان أسرع إليه الشيبُ في غير أوان.

قال المتنبي:

والهـم يخترم الجسـم نحافــة ويشيب ناصيـة الصبّـي ويهـرم

ولما فيها من ذكر الأمم وما حلّ بهم من عاجل بأس الله، فأهل اليقين الموحِّدين إذا تلوها انكشفت لهم من ملكه وسلطانه وبطشه وقهره ما تذهل منه النفوس، وتشيب منه الرؤوس فلو ماتوا فزعاً لُحقَّ لهم، لكن الله لطف بهم لإقامة ملكه، ونشر توحيده.

وقال ابن عباس: ما نزل على النبي آية كانت أشق، ولا أشد من قوله تعالى: فاستقم كما أمرت، ولذلك قال الرسول الكريم لأصحابه حين قالوا أسرع إليك الشيب قال: شيبتني هود.

فالفزع يورث الشيب قبل موعده، وهذه السورة اشتملت على الوعيد الهائل، والهول الطائل الذي يفطر الأكباد ويذيب الأجساد حيث قال سبحانه وتعالى عنه: "يوماً يجعل الولدان شيباً وإنما شابوا من الفزع.

وقال بعض أهل العلم: شاب النبي صلى الله عليه وسلم من هود وأخواتها، لما فيهن من التخويف الفظيع والوعيد الشديد لاشتمالهن مع قصرهنّ على حكاية أهوال الآخرة، وعجائبها، وفظائها وأحوال الهالكين والمعذبين مع ما في بعضهن من الأمر بالاستقامة، وهو من أصعب المقامات، وهو كمقام الشكر، إذ هو صرف العبد في كل ذرة، ونفس جميع ما أنعم الله به عليه من حواسه الطاهرة والباطنة إلى ما خلق لأجله من عبادة ربه، بما يليق بكل جارحة من جوارحه على الوجه الأكمل، ولهذا كما قيل للمصطفى وقد أجهد نفسه بكثرة البكاء والخوف والضراعة: اتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً.

والمقصود من قوله: " شيبتني" ظهور آثار الضعف عليه قبل أوان الكبر، وليس المراد منه ظهور كثرة الشعر الأبيض عليه، لحديث أنس قال: ما عددت في رأس رسول الله ولحيته إلا أربع عشرة شعرة بيضاء، وذلك لما في هذه السور، من أهوال

يوم القيامة والمثلات أي العقوبات النوازل، كالأمم الماضية أخذ مني مأخذه حتى شبتُ قبل أوانه.

وقال ابن القيم: الذي شيب من هود، المصطفى: فاستقم كما أمرت ومن تاب معك، ولا تطغوا إنه بما تفعلون بصير"، لأن الاستقامة لا تكون عن هوى وإنما تكون الاستقامة على حسب ما أمرت ولا يستطيع الإنسان أن يستقيم كما أمر إلا بعد أن يعلم بماذا أمر، ثم بعد ذلك يستقيم عليه والاستقامة عزيزة ولذا كان عمر بن الخطاب يقول: "استقيموا ولا تروغوا روغان الثعلب"

نسأل الله سبحانه وتعالى: أن يلهمنا رشدنا وأن يجعلنا ممن يستمع القول فيتبع أحسنه والحمد لله رب العالمين.[55]

([55]) (راجع رواه الترمذي برقم 97 32 وصححه الآليات في الصحيح برقم 955 تغير القرطجي جـ9 ص107- فيضعف القدير جـ4 ص222- شرح النووي على مسلم جـ2 ص9- رواه البخاري برقم 1130- رواه أحمد برقم 79 ؟؟؟!- سورة هود)